بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــــدمة

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، كما ينبغى لجلال وجهه ، وعظيم سلطانه ، والصلاة والسلام على معلـــم الناس الخير ، وهادى البشرية إلى الرشد ، وقائد الخلق إلى الحق ، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، سيدنا وإمامنا ، وأسوتنا وحبيبنا : محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد

فهذا هو الجزء الرابع من هذه السلسلة : فى الطريق إلى الله ، وهو يتعلق بمنزلة عظيمة من منازل الســائرين إلى الله ، والسالكين طريقه تبارك وتعالى ، وهى : التوبة .

ومن علماء السلوك من يقدم التوبة على غيرها من منازل السالكين ، ومقامات الصالحين ، كما فعل الإمام الغزالى فى كتابه (منهاج العابدين) ، حيث جعل (عقبة التوبة) هى العقبة الثانية بعد (عقبة العلم) الذى اعتبره أول ما يجب عبوره واجتيازه لمن ينبغى الوصول إلى الله تعالى ، أى إلى رضوانه وحسن مثوبته .

وفى (الإحياء) جعل للتوبة الكتاب الأول من (ربع المنجيات) ،ولكنى فى هذه السلسلة لم ألتزم ترتيبا معينا ، إنما أقدم للنشر ما يفتح الله تعالى علىّ بإنجازه ، وقد يمكن ترتيبها فيما بعد ترتيبا منطقيا .

إن علم التوبة : علم مهم ، بل ضرورى ، والحاجة إليها ماسة ، وخصوصا

فى عصرنا ، وقد غرق الناس فى الذنوب والخطايا ، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وتكاثرت عليهم المغريات بالشر ، والمعوقات عن الخير . وتكالبت على صدهم عن سبيل الله ، وإغرائهم بسبل الشيطان : وسائل جهنمية ، وأجهزة جبارة ، تُقرأ وتُسمع وتُشاهد ، وتؤثر بالصوت وبالصورة وبالنغم واللحن ، وبالتمثيل والتهويل ، وتعاونت على ذلك شياطين الإنس والجن ، وأعداء الداخل والخارج ، وساعد على ذلك الأنفس الأمارة بالسوء ، وركونها إلى الدنيا ، ونسيانها للموت ، وللحساب ، وللجنة والنار ، وغفلتها عن ربها وخالقها الواحد القهار ، فلا عجب إذا أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات ، ونقضـــوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وفرطوا فى حدود الله ، وحقوق الناس ، واستمرؤوا أكل أموال الناس بالباطل ، ولم يبالوا بما كسبوا من مال : أكان من حلال أم من حرام .

ألا ما أحوج الناس إلى نذير يصرخ فيهم : أن أفيقوا من سكرتكم ، وانتبهوا من رقدتكم ، وثوبوا إلى رشدكم ، وتوبوا إلى ربكم ، قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

فى هذا الجزء اجتهدنا أن نوقظ القلوب الغافلة ، ونرد العقول الشاردة ، ونقوى العزائم المسترخية ، وأن نبين للناس أهمية التوبة وضرورتها وفضلها ، ووجوب فوريتها ، ونبين مقوماتها وأركانها وأهم أحكامها ، كما نبين ثمراتها ومكاسب التائب من ورائها فى الدنيا والآخرة ، كما بينا الموانع منها ، والعقبات فى طريقها ، ثم البواعث عليها ، وقد أطلنا فى ذلك لشدة الحاجة إليه فى عصر الشهوات والغفلات والشبهات .

ولقد اهتم علماء السلوك جميعا بالتوبة وتحدثوا عنها ،عن حقيقتها وأركانها وشروطها : من أبى القاسم الجنيد وأبى سليمان الدارانى وذى النون المصرى ، ورابعة العدوية ، وغيرهم .

وكذلك المؤلفون فى السلوك : من المحاسبى إلى المكى إلى القشيرى إلى الغزالى ، إلى ابن القيم إلى من بعدهم .

ولقـد بيَّن الإمام الغزالى فى مقـــدمة كتاب (التوبة) من (الإحياء) أن

التوبة عن الذنوب - بالرجوع إلى ستار العيوب وعـــلام الغيوب - مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول أقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقرّبين ، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين . وما أجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو إن أذنب الآدمـــى واجترم ، ومن أشبه أباه فما ظلم ، ولكن الأب إذا جبر بعدما كسر ، وعَمَر بعد أن هدم ، فليكن النزوع إليه فى كلا طرفى النفى والإثبات ، والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم سن الندم ، وتندم على ما سبق منه وتقدم ، فمن اتخذه قدوة فى الذنب دون التوبة ، فقد زلت به القدم ، بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلافى سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين؛ فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان ، والمتجرد للشر شيطان ، والمتلافى للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ؛ فقد ازدوج فى طينة الإنسان شائبتان، واصطحب فيه سجيّتان ، وكل عبد مصحح نسبه ، إما إلى الملك ، أو إلى آدم ، أو إلى الشيطان ؛ فالتائـب قد أقام البرهان ، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان ، والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ، فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان ؛ فإن الشر معجون مع الخير فى طينة آدم عجنا محكما ، لا تخلصه إلا إحـدى النارين : نار الندم ، أو نار جهنم » .

ولقد كان عمدتى ومرجعى الأول : كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، ثم ما جاء عن سلف الأمة . وقد اجتهدت ألا أعتمد على حديث ضعيف فى حكم أو توجيه ، وأن أبين من أخرج الحديث ودرجته باختصـــار ، فما لم يكن صحيحا ولا حسنا لا آخذ به ، ولو كان فى الترغيب والترهيب ، وإذا ذكرته فللاستئناس لاغير ، أو أكون ناقلاً له عن غيرى ، مبينا ضعفه غالبا .

هذا ، وقد انتفعت فى هذا البحث بجملة كتب وخصوصا لعلماء السلوك ، أهمها كتابان أساسيان :

أولهما : كتاب (مدارج السالكين شرح منازل الســـائرين إلى مقامات ﴿ إِيَّاكَ

نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ للإمام أبى عبد الله شمس الدين ابن قيـــم الجوزية ، الشهير بـ (ابن القيم) وفيه أبدع وأجاد ، بقلم الأديب البليغ المتدفق ، وروح الداعية المربى المحلق ، ووجدان الربانى العارف المتذوق ، ونظر الفقيه الأصولى المتعمق ، وتجريد الموحد الصادق المحقق ، وهو حين يطلق لقلمه العنان ، يتدفق تدفق السيل الهادر، ويموج موج البحـر الزاخر ، ويورد الأوجه ، ويوضح الأسباب ، ويبين الأحكام ، ويشرح الحقائق .

وقد استفدت منه كثيرا ، ونقلت كلامه بنصه فى كثيرمن المواضع .

كما نقلت من كتابه (الداء والدواء) فى بيان أثر المعاصى .

والثانى : كتاب (إحياء علوم الدين) وهو الموســوعة الشــهيرة فى علم السلوك ، وهو يشتمل على أربعين كتابا مقسمة إلى أرباع أربعة، كما هو معلوم : ربع العبادات ، وربع العادات ، فربع المهلكات ، وربع المنجيات ، وأول كتاب فى ربع المنجيات ، هو كتاب التوبة .

والغزالى فقيه أصولى منطقى مرتب الفكر ، تعتمد تصانيفه على حسن التقسيم والتبويب ، وترتيب الأفكار ، وضرب الأمثال ، وروعة الأســلوب ، وقد استفاد منه كل من بعده ، كما استفاد هو ممّن قبله - وخصوصًا (قوت القلوب لأبى طالب المكى) .

وقد اقتبست منه كثيرا من الأفكار، كما نقلت كلماته بنصها فى بعض الأحيان .

أسأل الله الكريم أن ينفع بهذه الصحائف : كاتبها وقارئها وناشرها ، وكل من أسهم فيها بجهد ، لترجع القلوب إلى ربها ، كما أسأله سبحانه أن يتوب علينا توبة نصوحًا ، يكفر بها سيئاتنا ، ويرفع بها درجاتنا ، ويدخلنا بها جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

الدوحة : صفر الخير ١٤١٨ هـ

يونيو ١٩٩٧ م

يوسف القرضاوى

(١) التحريم : ٨ .